

الباب الثاني

الجنديّة

واجباتها وحقوقها

الجنديّة هي مجموعة الرجال القادرين غير المعنورين في الدولة الإسلاميّة سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، إذ كل رجل في الإسلام ممن ذكرت جنديّ تحت السلاح ، يحمل سلاحه إذا اقتضى الأمر ، ويخوض المعارك إذا جد الجد .

فإذا كان من الرجال المعنورين فإنه يؤدي واجبه نحو دينه وأمته بانتظامه في عمله الذي يقوم به ، فالتاجر في متجره ، والصانع في مصنعه ، والزارع في مزرعته والموظف في مكتبه ، وكل هؤلاء وأولئك جنود .

ولا شك أن كل واحد منهم على ثغرة من ثغرات الإسلام ، فهو يحافظ عليها ، ويدافع عنها حتى لا تؤثّر أمة الإسلام من قبله .

كل رجل في الأمة الإسلاميّة جنديّ على أهبة الاستعداد ، سلاحه تحت رأسه ، وروحه على كفه ، وأمره في يدي قيادته ، إذا نادى منادى الجهاد ، يا خيل الله اركبي لم يتخلف منهم أحد ، يترك الرجل تجارته فعند الله تجارة لن تبور ، ويودع أهله وعشيرته وله في الجنة زوجات من الحور العين ، ويترك كذلك مزرعته ومصنعه ومكتبه وله عند الله خير العوض .

وضرب الجنود المسلمون أروع المثل في تاريخ البشرية بما لا تعرف له الدنيا نظيراً من قبل ، سواء كان ذلك في الشجاعة والصبر ، أم في البذل والإيثار ، أم في التضحية بالنفوس والأموال ، وكانت طاعتهم لقيادتهم ، وولاؤهم لمبادئهم ، وترفعهم عن محقرات الأمور وسفاسفها مما جعل لهم في تاريخ الجنديّة شخصية متميزة إذا ذكرت الجنديّة أو تحدث عنها المتحدثون .

شهد بذلك العدو قبل الصديق ، ولم ينكره أحد من المؤرخين المحققين ، حتى أصبح الجندي المسلم غرة في تاريخ الإنسانية الطويل ، لقد رباهم الإسلام على عينه و اصطنعهم لحمل رسالته ، فكانوا أبر الأبناء بوعودهم ، وأوفى من عاهد بعهودهم ، ولقد ضبط الإسلام سلوكهم بآدابه ، وهذب غرائزهم بمبادئه وتعاليمه فانتزع من نفوسهم حب الغارة لمجرد السلب والنهب ، وغرس فيها حب الجهاد في سبيل الله ، واستل من قلوبهم حمية الجاهلية وعنجهيتها ، وأحل محلها أخوة الإسلام وتواضعه ، وبغض إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وحب إليهم التقوى والفضيلة والإيمان ، فأصبحوا بذلك جديرين بأن يكونوا جند الله ، فاستحقوا بذلك موعود الله : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (١) .

والإسلام لم يسخر هؤلاء الجنود لمآرب ذاتية ، ولم يستغل مشاعرهم الخيرة لمصالح شخصية ، بل رغبهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، وهداية البشرية ، وحثهم على مقاتلة عدو الله وعدوهم للقضاء على الظلم وإقامة العدل وتحقيق أسس المبادئ التي عرفتها الإنسانية .

الجندي في الإسلام شرف رفيع لا يرقى إليه إلا الشجاع المغوار ، لأن الإسلام أمر بالثبات وحرم الفرار يوم الزحف ، وجعله من الكبائر ، قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (٣) .

ومن أجل هذا العمل العظيم الذي يقوم به الجنود في الإسلام ، ومن أجل هذا الجهد الضخم الذي لا يستطيعه إلا المؤمنون أعظم الله - تعالى - أجر هؤلاء الجنود ، ولم يحرمهم جزاء صنيعهم في الدنيا ، وضمن لهم الأجر العظيم في

(١) سورة الصافات : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ١٥ - ١٦ .

الآخرة ، فأباح لهم الأسلاب والغنائم في الدنيا ، وأعد لهم في الآخرة جنات النعيم ، قال ﷺ : « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادا في سبيل ، وإيمانا بي ، وتصديقا برسلي ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة » (١) .

واجبات الجنود

يعتبر الإسلام من أوائل النظم التي جعلت للجنود حقوقا في مقابل الواجبات التي كلفهم بها ، وذلك لأن الإسلام يقدر الناس أقدارهم ، ولا يغمظهم حقوقهم فكل واجب يقابله حق ، نعم إن الناس جميعا عبيد الله - عز وجل - وليس للعبد لدى سيده حقوق إلا ما تفضل به السيد عليه ، والله - تبارك وتعالى - هو المنعم المتفضل ، وقد اقتضت رحمته بعباده أن يعطيهم الأجر مقابل ما يقومون به من الأعمال فضلا من الله ونعمة ، ووعدهم بذلك والله لا يخلف الميعاد .

وواجبات الجنود في الإسلام كثيرة وعظيمة بقدر ما يقومون به من الأعمال العظام ، ونحن مجملو هذه الواجبات فيما يأتي :



(١) رواه مسلم - الإمامة - فضيلة الجهاد والخروج في سبيل الله تعالى . والكلمات (جهادا ، وإيمانا وتصديقا) منصوبة على أنها مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج أو يحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق .
التنوير على مسلم (الناشر)

الفصل الأول

١ - الولاء :

الولاء هو الحب والتناصر والتحالف ، وهو بهذا المعنى من أوجب واجبات الجنود لقيادتهم ومبادئهم ، لأن الجندية الصحيحة لا تتحقق إلا بالحب المتبادل بين الجنود والقيادة ، والقيادة المخلصة لا توجد إلا بالتناصر والتحالف بينها وبين جنودها .

ومن المعلوم في الإسلام أن المسلم لا يمنح ولاءه إلا لأخيه المسلم جندياً كان أم قائداً ، ولا يجوز له مطلقاً أن يوالى غير المسلمين مهما كانت صلتهم به ، آباء كانوا أم إخواناً أم أزواجاً أم عشيرة ، قال - تعالى - : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ﴾ (١) .

إن الله - تبارك وتعالى - قد ربط بين قلوب المؤمنين برابطة الإيمان فأغناهم به عن كل رابطة ، ذلك لأن رابطة الإيمان رابطة روحية علوية ، تستمد قوتها من الله - عز وجل - وتأخذ سموها ورفعتها ودوامها من ديمومة الحق الذي يرفدها دائماً بالدوافع التي تزيدها مع مرور الأزمان قوة وسموا واستمراراً .

وما عدا رابطة الإيمان فإنها روابط مادية أرضية تزول بزوال موجباتها فرابطة الأبوة والبنوة ، ورابطة الأخوة والزوجية ، ورابطة العشيرة والقراية ، كلها لا تزن عند الله شيئاً متى ما خلعت وتجردت من رابطة الإيمان .

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

لهذا لم يعترف القرآن الكريم برابطة البنوة التى بين نوح - عليه السلام - وبين ابنه الذى كفر ولم يركب معه الفلك ، وذلك حين يأتى الطوفان مخيفاً هائلاً وينزعج نوح من أجل ولده المحروم من رحمة الله لعصيانته وتمرده .

يقول نوح - عليه السلام - : ﴿ رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ﴾ فيرد الله - عز وجل - دعوى نوح بقوله - تعالى - : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ (١) إنها رابطة لحم ودم ولكنها خالية تماماً من الإيمان لهذا لم يعترف بها القرآن .

وكما رفض رابطة البنوة السابقة رفض كذلك رابطة الأبوة بين إبراهيم - عليه السلام - وبين أبيه آزر ، وذلك حين يعرض القرآن الحوار الذى دار بين إبراهيم و أبيه ، والذى ينتهى بقطع الرابطة والعلاقة التى بينهما ، حيث يقول إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ وأعتز بكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ (٢) .

وهكذا ترفض رابطة الأخوة بين مصعب بن عمير - رضى الله عنه - وبين أخيه عزيز فقد أسر عزيز فى غزوة بدر ، ورآه مصعب - رضى الله عنه - أسيراً فى يد أحد المسلمين فقال مصعب لمن أسر أخاه : « اشدد يدك عليه ، فإن أمه ذات مال ، وعسى أن تفتديه منك بمثل كثير » .

فيقول عزيز وقد سمع مقالة أخيه : « أهذه وصاتك بأخيك يا مصعب ؟ » فيرد مصعب عليه أخوته ، ويقول : « لست أخى ، بل هو أخى دونك » (٣) .

ويأتى دور رابطة الزوجية الخالية من رابطة الإيمان فترفض كما رفضت سوابقها ورابطة الزوجية من أوثق الروابط وأمتنها ، ولكنها حين لا تبنى على أساس من الإيمان فإنها لا تبنى عن صاحبها شيئاً .

(١) سورة هود : الآية ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة مريم : الآية ٤٨ .

(٣) سورة ابن هشام : ٦٨٦/٢ طبعة دار الفكر .

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلا لذلك بزواجتي نوح ولوط - عليهما السلام - فإنهما خانتا زوجيهما ، وتمألأتا مع أعداء الله والرسالة فلم تغن عنهما رابطة الزوجية ولو كانت مع نبيين كريمين شيئا ، ولم تحل بينهما وبين الخلود في النار ، قال - تعالى - : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ (١) .

ولم تكن رابطة القرابة والعشيرة بأحسن حالا من غيرها من الروابط السالفة لقد أتى الإسلام الاعتراف بها لخلوها من الإيمان ولو كانت قرابة من الدرجة الأولى فهذا أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - عم رسول الله ﷺ ترد عليه قرابته ، ولم تغن عنه شيئا ، ونزلت في حقه سورة من القرآن الكريم تسفه رأيه وتنذره بالويل والثبور ، وتتوعده بألوان من العذاب تشيب لهولها الولدان ، وستظل السورة تتلى على ألسنة المؤمنين كعنوان لرفض أقوى الروابط المادية التي لا تقوم على أساس من الحق والإيمان ، وسيظل يرددها المؤمنون إعلانا منهم لهذا انبدأ القويم الذي قرره القرآن الكريم ، يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ تبت يدا أوى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ﴾ (٢) .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى في آيات متعددة بما لا يدع فرصة لأى نوع من الموالاتة يكون بين المؤمنين وغير المؤمنين مطلقا ، فلا ولاء بين المؤمنين وبين اليهود والنصارى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ (٣) .

ولا ولاء بين المؤمنين والمنافقين ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ (٤) .

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .

(٢) سورة المسد .

(٣) سورة المائدة : الآية ٥١ .

(٤) سورة النساء : الآية ٨٩ .

ولا ولاء بين المؤمنين وأعداء الله وأعداء المؤمنين مطلقا ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ (١) .

ولا ولاء بين المؤمنين وبين المؤمنين الذين لم ينضموا للجماعة المؤمنة المكافحة التي تتصدى لأعداء الإسلام ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ (٢) .

ثم تأتي آية التوبة فتفصل في المسألة دون محاباة أو مجاملة فتنتهي عن الموالاتة بين الأبناء المؤمنين وبين آبائهم وإخوانهم . يقول الله - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٣) .

وتعقب عليها الآية التي تليها فتحسم الأمر حسما لا يقبل التردد ولا القيل والقال ، فيضع الله - عز وجل - كل أنواع الروابط التي تعارف عليها الناس - الأبوة والبنوة والأخوة والزوجية والعشيرة والقبيلة - ويضاف إليها كل متاع الدنيا وزخارفها : الأموال التي نشقى في تحصيلها ، والتجارة التي نحرص على رواجها ، والقصور التي نتباهى بتشيدتها ، يضع ذلك كله في كفة ، ويضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيله في الكفة الثانية ، ثم يهدد الذين ضلت أحلامهم فآثروا الأولى على الآخرة ، وفضلوا الفانية على الباقية ، فيقول - جل جلاله - : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٤) .

ونحن نرى من هذا العرض لآيات القرآن الكريم أن الإسلام لم يعترف بتلك

(١) سورة الممتحنة : الآية ١ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٢٣ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

الروابط كلها مادامت متجردة عن الرابطة الحقيقية وهى رابطة الإيمان والعقيدة وهذه هى الرابطة الحقيقية التى تشد المجتمع بعضه إلى بعض ، وتربط بين الناس ولو لم يكن بينهم صهر ولا نسب ، وهى التى يكون على أساسها الولاء والمحبة والتناصر يقول - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ﴾ (١) .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ وهو الذى قطعت السورة الكريمة ما بينه وبين عمه من الولاء والمحبة والقرابة يقول فى سلمان الفارسي : « سلمان منا أهل البيت » (٢) .

إن الإسلام الذى لم يعترف بتلك الروابط لا يسمح بإقامة علاقات بين المسلمين وغيرهم مبنية على قواعد الولاء والمحبة والمودة ، لأن ولاء المؤمنين لا يكون إلا للمؤمنين ، وحب المسلمين لا يكون إلا لإخوانهم المسلمين قال - تعالى - : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٣) .

إن موالاته غير المؤمنين مغامرة خطيرة ، قد تؤدي إلى الخروج من حظيرة الإيمان ، لأن الولاء هو الحب والمناصرة ، وإذا حصل هذا بين المؤمنين وأعداء الدين ، فإنه يكون حبا للباطل ومناصرة له ، وذلك هو الكفر الصريح ، ولهذا قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَفُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمُ وَالْكَافِرُ أَوْلِيَاءُ ﴾ (٤) وقال - جل شأنه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنكُمُ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) .

(١) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٢) رواه الطبراني فى الكبير .

(٣) سورة التوبة : الآية ٧١ .

(٤) سورة المائدة : الآيتان ٥٧ ، ٥١ .

العقيدة أساس الولاء :

العقيدة هي الأساس الذى يبنى عليه الولاء فى الإسلام لأن الأصل أن المسلم لا يوالى إلا المسلم حيث تجمع بينهما عقيدة التوحيد ، فإذا اختلفت العقيدة فلا موالاة ولا تناصر .

وكما أن غير المسلمين يوالى بعضهم بعضا مهما اختلفت نحلهم وعقائدهم قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْمِ أَوْلِيَاءِهِمْ بَعْضٌ ﴾ (١) فكذلك ينبغى أن يكون المسلمون فالموالاة حق للمسلم على المسلم .

فاليهود والنصارى يوالى بعضهم بعضا ، بل ويوالون الملحدون والمنافقين ، ولا يتورعون عن مخالفتهم ومناصرتهم ، والواقع التاريخي يصدق ذلك كله مادام العدو هو الإسلام .

إن المفاصلة فى هذا الأمر يجب أن تكون حاسمة صارمة ، تقطع حالة التردد وتقضى على ما فى النفوس من الخيرة ، فلا تحالف بين المؤمنين وغيرهم ولا تناصر ولا مودة ، وإنما هو استعلاء الإيمان على الكفر بأسمائه المختلفة .

وينبغى أن نعلم أن التسامح فى معاملة غير المسلمين ليس من الموالاة ، فنحن لم ننه عن ذلك ، بل يجوز لنا برهم والإقسط فى معاملتهم ماداموا غير محاررين يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

قد تكون هذه الآية سببا فى الخلط بين التسامح والولاء ، وقد يكون هذا الخلط ناشئا عن مغالطة وسوء قصد ، والحق الذى يجب أن يكون واضحا فى أذهان الناس أن التسامح إنما يكون بين الأفراد فى المعاملات التى تكون بينهم ، أما الولاء فإنه يكون بتحقيق التحالف والتناصر ، والفرق واضح بين الأمرين ، يلزم أولئك الذين يعيشون بوجدانهم وقلوبهم للإسلام ، ولا يحسه الذين

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) سورة المستحنة : الآية ٨ .

انتسبوا إلى الإسلام ، ولم يتجردوا له ، وسموا مسلمين وما هم بمسلمين .

فالتسامح إذن غير الموالاة ، ولهذا أجاز الله أن تتسامح مع غير المسلمين في التعامل لأن ذلك من حسن الخلق الذي يدعو إليه الإسلام ، وحرم الموالاة واعتبرها مع غير المسلمين نوعا من الردة يجب أن ينتزه عنه المسلمون ، فإنه - سبحانه وتعالى - بعد أن بين أن من يوالى اليهود والنصارى يكون منهم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم ينجيهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ (١) .

ثم عقب على هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ (٢) .

وهكذا ينحصر ولاء المؤمنين ، فلا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، وبهذا لا يكون ولاء مطلقا بين المؤمنين وغيرهم ، بل لا يجوز للمسلمين أن يحدثوا هذا النوع من الولاء مهما كانت الأسباب ، لأن النصر متوقف عليه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (٣) .

وتلك نتيجة حتمية لهذه الموالاة ، فإن الله - عز وجل - لا يسلم أوليائه ، ولا يمكن لأعدائه ، وإذا حدث هذا فإنما يكون بسبب تقصير المؤمنين وإعراضهم عن دين الله .

ومن هنا نتبين حقيقة ما يشيعه المتخاذلون من أن موالاة غير المؤمنين للتغلب على عدو مشترك جائز ، فهذا الكلام وهم محض ، والأحداث التاريخية تشهد بخلاف ذلك ، فغير المسلمين لا يتحالفون مع المسلمين إلا مرغمين ، وإذا أتاحت لهم فرصة الخيانة ونقض العهد سارعوا إليها ، وأما مع بعضهم فإنهم

(١) سورة المائدة : الآية ٥٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٥٦ .

يتحالفون ويتناصرون وقد ثبت تحالف المنافقين مع اليهود ، وتحالف المشركين مع اليهود كذلك ضد الإسلام والقرآن الكريم يقرر هذا بوضوح في قوله تعالى - : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (١) .

عدم الموالاة لا يستلزم الإكراه :

ولن يكون عدم الولاء مستلزما لإكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام ، لأن الله - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٢) ، وذلك لأن الإكراه لا يوصل الإيمان إلى القلب ، ولا يثبت العقيدة في النفس ، بل يجعل الإيمان كلمات تتردد على الألسنة ، ولا يتجاوز بالعقيدة حد الحناجر ، وهذا الإيمان وتلك العقيدة لا يعترف بهما الإسلام فالإسلام يطالب الناس بالإيمان عن اقتناع ، ولا يقبل العقيدة إلا أن تكون قائمة على حجة وبرهان .

فمتى كان الإيمان بغير اقتناع ، والعقيدة خالية من الحجة والبرهان يكون ذلك خداعا لا يقره الإسلام ، بل هو بصراحة حقيقة النفاق التي هي أخبث أنواع الكفر ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٣) .

مواقف رائعة :

فهم المسلمون أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحققوا ذلك كله في أنفسهم ، وطبقوه على حياتهم ، فمحضوا ولاءهم للقيادة ، وقطعوا علائقهم بكل من يخالفهم في العقيدة ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

(١) سورة البقرة : الآية ١١٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٩ ، ١٠ .

وتاريخ المسلمين حافل بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى
الولاء الذى لا يجوز لهم أن يمنحوه إلا لقيادتهم وإخوانهم المسلمين .

ونكتفى هنا بأمثلة توضح هذا الفهم الدقيق الذى استقر فى عقول
المسلمين ، وفى الأمثلة إيمان فياض ، وتجرد نادر ، وتمحيص للولاء لمن يستحق
الولاء ، أحدها موقف رجل من أبيه ، والثانى موقف امرأة من أبيها وسنلاحظ أن
موقف المرأة لا يقل روعة وإعجاباً عن موقف الرجل ، مع التفاوت بينهما فى
الدوافع والصفات وقوة المواجهة . والثالث موقف رجل من أمه .

أما الرجل فهو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، وقد سجل له التاريخ
موقفاً هو أروع ما سجل التاريخ لرجل تولى الله ورسوله والمؤمنين دون أبيه
وعشيرته وقرباته ، وآثر إيمانه على كل عزيز لديه .

ولترك ابن إسحاق يروى لنا القصة على طبيعتها فيقول : « حدثنى عاصم
بن عمر عن قتادة ، أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه
بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك ، فإن كنت ولا بد فاعلا فمرنى
به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها رجل أبر بوالده
منى ، وإني أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله
بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى
معنا » (١) .

وكان ابن أبى قد قال كلمته التى حكاها عنه القرآن الكريم ، تلك الكلمة
التي تنم عن نفاق لئيم ، وخبث عميق ، قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن
- الأعز منها الأذل ، وبلغت تلك الكلمة رسول الله ﷺ كما بلغت عبد الله
ابن عبد الله بن أبى ، فذهب إلى رسول الله ، وحدثه الحديث السالف ، ورد عليه
الرسول بما يدل على عفوه عنه .

(١) سيرة ابن هشام : ١١١٦/٣ .

ولكن عبد الله - رضى الله عنه - لم يرض بهذا الموقف السلبى ، وأبى إلا أن يعلن على الملأ أن رسول الله ﷺ هو الأعز ، وأن أباه هو الأذل ولو كان سيدا فى قومه ، رئيسا على قبيلته ، ولو كان مرشحا لأن يكون ملكا على المدينة قبل دخول الإسلام إليها .

فلم يكذ الناس يرجعون من غزوة بنى المصطلق التى حدث فيها ما حدث حتى وقف عبد الله على باب المدينة ، ومنع أباه من دخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ .

روى المحققون من أهل السير قالوا : « إن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه ، قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك .

فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء الرسول ﷺ - وكان إنما يسير (ساقه) أى فى آخر الجيش لينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة - فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه . فقال ابنه - عبد الله - : والله يا رسول لا يدخل حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ .

فقال عبد الله : أما إذا أذن لك رسول الله ، فعجز الآن (١) .

هذا موقف رجل مؤمن من أبيه المنافق ، وليس أبوه صعلوكا فأراد أن يتخلص منه ليكفى نفسه شر النفقة عليه ، ولا هو برعديد فخشى ان يلحقه عار جنبه ، ولا هو بوضيع فحاول أن يمحو حقارة نسبه ، بل كان أبوه

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ص ٣٦٧ ، وابن كثير فى البداية والنهاية : ١٥٨/٤ ، وحنائق الأنوار لابن الربيع : ٥٦١/٢ .

ثريا في قومه ، شجاعا في عشيرته ، متوجا على أهل قريته ، فلماذا وقف عبد الله من أبيه هذا الموقف ؟

إن عبد الله رجل مؤمن علمه إيمانه أن يكون ولاؤه لدينه وقيادته فطبق هذا العلم في حياته العملية ، وأراد بذلك أن يمحّص ولائه لقيادته ويعلن إخلاصه لعقيدته ، فوقف هذا الموقف الرائع الجريء .

وأما المرأة فهي أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة رسول الله ﷺ و قد وقفت من أبيها - أبي سفيان - موقفا لا يقل روعة عن موقف عبد الله من أبيه ، بل يزيد عليه أنه من امرأة بارة رقيقة العواطف حانية القلب .

جاء أبوها إلى المدينة المنورة - وهو لا يزال على شركه - آملا أن ينجي بين المسلمين والمشركين قبل غزوة الفتح ، وكان المشركون قد نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين فعزم الرسول ﷺ على غزوهم ، فلما بلغ المشركين ذلك أرسلوا أبا سفيان لعله يفلح في تهدئة الخواطر ، وينجح في إيقاف الحرب قبل أن تشتعل نارها .

قدم أبو سفيان إلى المدينة سفيرا عن قريش ، وكله أمل في أن تنجح سفارته فيعود إلى قريش ، وقد تأكدت زعامته ، ويبدو أنه كان معتمدا على مركز ابنته عند رسول الله ﷺ فإن الرسول قد تزوجها وهي لا تزال في الحبشة مهاجرة مع زوجها الذي تنصر وفارقها ومات هناك على الكفر .

وحاول أبو سفيان أن يجد من المسلمين من يساعده في تحقيق هدفه وأداء مهمته ، ولكنه باء بالفشل والخسران ، وعندئذ توجه إلى بيت رسول الله ﷺ حيث تقيم ابنته أم حبيبة ، فدخل عليها وكان فراش رسول الله مبسوطا ، فأراد أبو سفيان أن يجلس عليه .

وهنا أسرع أم حبيبة - رضى الله عنها - وجمعت الفراش فطوته . وحسب أبوها أنها إنما طوت الفراش لأنه غير لائق بمقام سيد قريش وستائيه بما هو خير منه ، ولكنها لم تفعل ، فسألها أبوها ، أى بنية ، هل رغبت بأبيك عن الفراش أم رغبت بالفراش عن أبيك ؟

وفوجيء أبو سفيان بجواب حاسم لم يتوقعه حين قالت الزوجة الوفية المؤمنة : « إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فأحببت ألا تجلس عليه » (١) .

هكذا أجابت أم حبيبة - رضى الله عنها - أباها .
ومن أبوها ؟

إنه أبو سفيان سيد قريش ، وعلم من أعلامها ، إنه الرجل الذى تهابه الرجال لمكانته فيهم ، ولكن أم حبيبة لم تهبه كأمراة ، ولم تهبه كابنة له ، لأن حقيقة الإيمان حينما تستقر فى النفس ، ويطمئن بها القلب تطرد منه الخوف من غير الله - عز وجل - ولأن الإيمان الحق يأبى أن يكون حب المؤمن وولائه لغير قيادته وكان قلب أم حبيبة قد امتلأ بتلك الحقيقة فلم يعد فيه مكان لموالاة أحد غير المؤمنين .

إن أم حبيبة المرأة المؤمنة والابنة البارة استطاعت بقوة إيمانها أن تسيطر على عواطفها فلم تعد تتحرك نحو أقرب الناس إليها ، وتغلبت بقوة إرادتها على نزعتها البشرية فلم تقدم أباها ، وأخلصت حبها وولاءها لقيادتها .

ونحن نلاحظ أن أم حبيبة حينما طوت الفراش قالت : « إنه فراش رسول الله » ، ولم تقل فراش زوجى ، وذلك لأن ارتباط المرأة بأبيها أوثق من ارتباطها بزوجها ، فالعلاقة بين الأب وأبنائه لا تنفصم أبدا ، وأما علاقة المرأة بزوجها فإنها قابلة للانفصام .

وليس لكلمة السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها - معنى إلا أن إخلاصها لقيادتها كان أعظم فى نفسها من إخلاصها لأبيها ، ولهذا قالت : « إنه فراش رسول الله » .

إن المرأة عادة تضعف أمام عواطفها ، وتفتر همتها لزاء وجيب قلبها المتأثر بنزعتها الأنثوية ، ولكن أم حبيبة قد استولى الإيمان على قلبها فاستطاعت كبت

(١) ابن هشام : ١٢٣٧/٤ .

عواطفها والتحكم في نزعاتها والسيطرة على قلبها فأصبحت عواطفها خلف إيمانها ، وخفقات قلبها طوع عقيدتها ، وقد روضت نزعاتها البشرية حتى لا تتحرك إلا لتحقيق الغاية السامية التي من أجلها هبطت رسالة السماء على أهل الأرض .

هكذا كانت أم حبيبة - رضى الله عنها - أمام أبيها جاهرته بالعداء ، وأكنت لقيادتها خالص الولاء .

وهذا سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - وكان من أبر الناس بأمه حمنة بنت أبى سفيان ، أسلم سعد مبكرا ، وهو فى ريعان شبابه ، فكان من السابقين الأولين . ونقمت أمه منه دينه الجديد ، وبذلت أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان من جهد لثرده إلى دين آباءه وأجداده ، ولكن سعدا لم يكن بالفر الذى تؤثر فيه أمثال تلك الحيل ، فقد شده الإيمان إلى جماعة المسلمين ، وارتبط قلبه بالدين الجديد ، فلم تؤثر فيه محاولاتها .

ورأت أم سعد أن تستغل بره بها ، وأن تستعمله سلاحا لعله يمكنها مما فشلت فيه حيلها ، فاستعطفته بحمقها عليه ، وانتصر سعد على عاطفته ، وأصر على التمسك بدينه .

وهنا وعندما أعيت الحيل العجوز ، لجأت إلى التهديد والوعيد ، وأضربت عن الطعام والشراب ، وأخبرته بأنها ستظل هكذا حتى تموت جوعا ، فيعير ولدها سعد بموتها ، يقال له : يا قاتل أمه .

ووقف سعد أمام امتحان خطير ، فهو الآن بين أمرين لا حيلة له إلا أن يقبل أحدهما ، أمضى بدينه ، ويرضى أمه حتى لا يعير بميتها التى تستنكرها العادات العربية الموروثة ، أم يضحى بأمه ، ويعتصم بدينه ، وليكن ما يكون ؟ ولم تطل وقفة سعد أمام هذا الاختيار الرهيب ، وحسم الأمر فى سرعة لم تصورها أمه التى كانت تعلق الآمال الكبار على بره بها وعطفه عليها ، والتى لم تشك قط فى أنه سين أمام تهديدها ، ويضعف تحت ضغط وعيدها ، واتخذ سعد - رضى الله عنه - قراره الذى أزهل أمه ، وأزهل كل من كان حولها حين

قال : « يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني ، فكل إن شئت ، وإن شئت فلا تأكل » (١) .

وفوجئت الأم بهذا القرار الذي لم تتوقعه ، ويشت من عطف ولدها ، وعدم خشيته من أن يعير بموتها فعادت إلى ما كانت عليه وأكلت وشربت .

وهكذا آثر سعد عقيدته على أمه ، واستمسك بإيمانه ولم يهن أمام ضغطها ، ذلك لأن الإيمان قد قطع علاقته بكل ما حوله سوى الجماعة المسلمة ، فهي الحقيقة بحبه وتقديره ، وهي الجديرة بإخلاصه وولائه .

هذه نماذج لا تزال حية في قلوبنا وإن طال عليها الزمن ، ولم تختف عن أبصارنا وإن وارى الثرى أصحابها ، وإن الكلمات التي أظهرت فيها ولاءها لقيادتها لتطرق أسماعنا عبر القرون الطويلة السحيقة التي مرت عليها ، فعبد الله يقول لأبيه : « والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الدليل » وأم حبيبة تقول لأبيها : « هذا فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فأحبيت ألا تجلس عليه » وسعد يقول لأمه : « يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني » .

هكذا يجب أن يكون المؤمن ، ولاؤه لقيادته مبني على أساس عقيدته ، لا تضعفه عاطفة مهما قويت ، ولا توهنه قرابة مهما قربت ، ولا تصرفه عن خطته أبوة رحيمة ، ولا أمومة رؤومة ، ولا بنوة بارة كريمة .



(١) رواه الترمذی .